الشرق الأوسط: "إنها وصفة لكارثة حقيقية!"

مولاي هشام العلوي

أدركت عام 1996، بينما كنت أقوم بمهمتي كملاحظ دولي للانتخابات في فلسطين، مدى الأخطار التي كان يمثلها النظام الناشئ لياسر عرفات على الديمقراطية الفلسطينية. فقد التقى أعضاء فريق الملاحظين، الذي عملت معه، العديد من المستشارين والمسؤولين في السلطة، المقربين من عرفات، كما التقوا معارضين له من رجال السياسة والصحافيين ومناضلي حقوق الإنسان في فلسطين.

وقد كان واضحا أن أطر منظمة التحرير الفلسطينية العائدين من المنفى مع عرفات أبعدوا المسؤولين المحليين الذين برزوا خلال عقود الاحتلال. لقد أبدى البعض منا، بصراحة قلقه تجاه خلق مناطق نفوذ شخصية في العديد من المدن، على اعتبار أن مناطق النفوذ هاته تزيد من خطر ظهور وتفشي جيوب الفساد بشكل كبير.

كانت متاهات وسراديب مصالح الأمن، التي يعتبر عرفات المسؤول الوحيد عنها، تثير بدورها الكثير من القلق، بحيث إنها تسمح له تلقائيا بخلق نظام قضائي سلطوي واعتباطي.

وحتى وان كان عرفات ربح المساندة الشعبية الواسعة في فلسطين، فقد شهدنا على وقوع الكثير من الخروقات التي شابت العملية الانتخابية، خاصة في غزة، جعلتنا نخشى من أن تسلك السلطة الفلسطينية المسلك الخاطئ الذي لا يخدم الديمقراطية.

فأكثر ما كنا نخشاه هو أن تتأثر هذه المحطة التأسيسية للأمة الفلسطينية بالنوايا والتيارات غير الديمقراطية التي تفسد عددا كبيرا من الأنظمة العربية، لذلك آثرنا الانشغال بأخطار هذه البنية السلطوية الناشئة أكثر من الانشغال بنتيجة الانتخابات.

بيد أنه لا أحد من الفاعلين الأساسيين، أمريكيين كانوا أو غربيين، كلف نفسه عناء الاهتمام بتحذيراتنا. فقد كان عرفات هو ذاك الرجل الذي أتت به الأقدار ليخدم مصالح الولايات المتحدة وإسرائيل.. ذلك الرجل الذي «سيبيع» اتفاقات أوسلو إلى الشعب الفلسطيني وسيسير«مسلسل السلام» بحسب المعايير التي تضعها إسرائيل والولايات المتحدة.

خلاصة القول أن الأمريكيين لم يكونوا قلقين البتة بشأن «الديمقراطية» في فلسطين. فقد بعثت الولايات المتحدة نائب رئيسها «ألغور» إلى فلسطين لتشجيع عرفات على خلق محاكم سرية لأمن الدولة خاصة بمحاكمة «الإرهابيين» المقبوض عليهم.

إن العرب والفلسطينيين التقدميين يعرفون جيدا النزوعات اللاديمقراطية والفاسدة لعرفات، وطالما سرت هذه النزوعات الإسرائيليين فالأمريكيون يرحبون بها.

واليوم، يرى العديد منا، أولئك الذين تمثل لهم القضية الفلسطينية التزاما يلزمهم مدى الحياة، أن الوقت قد حان كي يتحمل عرفات دوره الرمزي كأب أمة وأن تسند شؤون الحكم لحكام شباب وأكثر كفاءة من الذين سبقوا. إننا ننتظر، بغير قليل من الأمل، الانتخابات الديمقراطية وظهور فريق تسيير كفء، قادر على خلق سياسات نزيهة وشفافة لمصلحة الشعب الفلسطيني.

أما وإن انتخب فريق مسير جديد في فلسطين فيجب عليه أن يضع إستراتيجية فعالة من حيث قدرتها على مقاومة الاحتلال، وإن كانت ستقلق إسرائيل والولايات المتحدة معها. كما نأمل أن تقاطع هذه الإستراتيجية خطط الرعب وإفناء الذات المتمثلة في الانفجارات الانتحارية والتخلي عن الملاحقة المرضية غير المجدية للقوة الأمريكية العظمى.

أما محاولة عرفات محاباة الرئيس بوش عن طريق تزكية ما جاء في خطابه الأخير فما هي إلا تأكيد لفشله.

هل يوجد، حقا، شخص ما يحمل مواصفات الزعيم الفلسطيني المناسب بحسب الرؤى الأمريكية والإسرائيلية؟ هل سيقبل الأمريكيون والإسرائيليون زعيما فلسطينيا، نزيها كان أو لم يكن ومنتخبا بشكل ديمقراطي، يعارض بحزم الاحتلال الإسرائيلي ويقاوم التهديدات الأمريكية؟ هل يقبلون زعيما يهدد مصالحهم لأنه يمثل، حقا، إرادة الشعب؟

الحقيقة أن عرفات لم يقص بسبب سياسته «اللاديمقراطية»، ولكنه أقصي لأن الحكومة الإسرائيلية غيرت رأيها. فاليوم إذ يتولى الليكود وشارون تسيير الحكم بإسرائيل، هم الذين عارضوا دائما اتفاقات أوسلو وجميع «مسلسلات السلام» التي من شأنها أن تعوق سير الاحتلال وتقدمة على حساب الأراضي الفلسطينية، قررت إسرائيل نهاية عرفات والسلطة الفلسطينية، إذ صار شارون حريصا على أن لا يتفاوض إلا مع زعيم آخر أكثر «تعاونا» من عرفات، ذلك الزعيم الذي لا وجود له! وبالتالي يصبح مصير المفاوضات في خبر كان!

وبما أن إسرائيل غيرت رأيها، فالولايات المتحدة تبارك خطواتها وتكتفي بإخبار عرفات وفريقه الأمني - الذين كانوا أسسوا، بالرغم من كل شيء، علاقات مهنية، إن لم نقل شخصية، مع مصالح الأمن السرية الأمريكية - بأن ساعة الانسحاب قد أذنت: «نحن آسفون. لقد حانت ساعة الانصراف». أمر مؤسف فعلا، لكنه لم يكن مفاجئا، هذه هي الحقيقة، فلا داعي للتضليل.

إنني صديق لأمريكا، فقد نميت شخصيتي بأشكال متعددة منذ أن احتككت بهذه الأمة الرائعة، التي بت أعرفها اليوم وأحترم شعبها وقيمها التأسيسية. لذلك وجدتني حزينا جدا وأنا أرى رئيس الولايات المتحدة يلقي خطابا أعتبره المراقبون الإسرائيليون جميعهم خطابا يتماثل وخطابات شارون أو اللجنة المركزية لحزب الليكود. اننى أخشى على المستقبل القريب لمنطقة الشرق الأوسط والعالم بأسره.

لقد أخطأت الأنظمة العربية حين ركزت اهتمامها على هذا العنصر الإيجابي أو ذاك في خطاب بوش دون العناصر الأخرى، بحثا منها على قراءة الخطاب قراءة إيجابية. فخطاب بوش، هذا، يلخص ميل إدارته إلى تحويل جميع القضايا إلى قضية «إرهاب» والامتثال التلقائي للقرارات التي يقترحها اليمين الإسرائيلي الأكثر تطرفا في الوقت الذي نسي فيه الجميع الاحتلال الظالم للأراضي الفلسطينية. فاكتسبت إذن الفكرة الملتبسة مشروعيتها، تلك الفكرة القائلة بأنه يكفي مهاجمة السلطة الفلسطينية لحل هذا المشكل أو ذاك! ومن تم تجد إسرائيل تبريرا لسياسة الجمود الإرادي التي دأبت على تطبيقها. إنها شرعنة لاتفاقات أوسلو – مكرر - تناور بها إسرائيل بينما لم يعد الزمن مسعفا للقيام بمناورات من هذا القبيل. إنها وصفة لكارثة حقيقية.

عن لوموند
ترجمة سعيد الشطبي
بموافقة الأمير مولاي هشام